المحاضرة الثالثة

نشأة وتطور التصوف ببلاد المشرق الإسلامي

- التصوف منشؤه ومصطلحاته

أولا: تعريف التصوف لغة واصطلاحا.

1-لغة:

إذا نظرنا إلى كتب اللغة وبعض القواميس المعتد بها وجدنا أن ابن فارس أورد مادة:" صوف: الصاد والفاء أصل واحد صحيح، وهو الصوف المعروف، والباب كله يرجع إليه، يقال كبش أصوف وصوف وصائف وصاف، كل هذا يكون كثير الصوف، فأما قولهم صاف عن الشر، إذا عذل فهو من باب الإبدال، يقال صاب إذا مال ".

قال ابن منظور:" وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه...،ومنه قولهم صاف عني شر فلان وأصاف الله عني شره".

وفي المعجم الوسيط:" صاف الكبش صوفا ظهر عليه الصوف فهو صائف وكثر صوفه فهو أصوف وهي صوفاء، تصوف فلان صار من الصوفية، التصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح....".

وبالعودة إلى أحد أقدم كتب التصوف وهو كتاب" اللمع " للإمام أبي نصر السراج الطوسي(ت: 387هـ)، نلفيه قد أرجع تسمية الصوفية إلى اللباس الذي اتخذوهشعارا ورمزا، وهو لباس الصوف، ولم ينسبوا إليه على أنه علم من العلوم كالعقيدة والفقه والحديث والتفسير، ولا إلى حال من أحواله كالحزن أو القبض أو البسط أو الفناء.

والكلاباذي(ت: 385هـ)فيرى أن تفسير هذه الكلمة متعدد، فطائفة قالوا إنما سموا صوفية لصفاء أسرارهم ونقاء سريرتهم وجميل آثارهم، وذهب آخرون إلى أنهم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله بارتفاع هممهم وعلو إرادتهم في العبادة، وذهب آخرون

إلى أنهم سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.....

أما القشيري في رسالته فقال:" ليس لهذا الاسم من حيث العربية، قياس ولا اشتقاق، والأظهر أنه كاللقب".

وقال ابن خلدون(ت: 808هـ):" ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال باشتقاقه من الصفا أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف ... قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب، إلى لبس الصوف ".

2- اصطلاحا:

من الواضح أن تعاريف التصوف تعددت وتلونت تبعا للأحوال والمقامات، وتتباين حسب العصور والبيئات، وبعض البلاد الإسلامية عرفت انتشارا للتصوف ملحوظا، ومنها شمال إفريقيا وخاصة المغرب، التي تنبت الأولياء كما تنبت الأرض الكلأ. ولذلك قيل قديما إذا كانت أرض المشرق بلاد الأنبياء فبلاد المغرب أرض الأولياء.

ومما تقدم وتقرر سنسرد بعض التعاريف التي ذكرها أهل التصوف أنفسهم:

سئل رويم عنه فقال:" التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد".

وقال الإمام الجنيد:" التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة ".

وقال معروف الكرخي(ت: 200هـ/815م):" التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق".

وقال سحنون المالكي(ت: 256هـ):" التصوف هو أن لا تملك شيئا ولا يملك شيئا".

وقال ابن حزم(ت:456هـ):" وادعت طائفة من الصوفية أن في أولياء الله من هو أفضل من جميع الأنبياء، وأن من عرف الله فقد سقطت عنه لأعمال ".

وقال الغزالي(ت: 505هـ):" إنه انصراف عن الشيء إلى ما خير منه فكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا وقوام هذا الزهد التقوى وكف النفس عن الهوى وقطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ".

أما ابن الجوزي(ت:592هـ) قال:" وحاصله أن التصوف عندهم رياضة النفس... وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس عليهم إبليس في أشياء، ثم لبس على بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن التالي فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن ".

وهو عند الشيخ أحمد زروق:" صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه".

وقال أبو إسحاق الشاطبي:" ولفظ التصوف لا بد من شرحه أولا حتى يقع الحاكم على أمر مفهوم... فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون، واصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيين: أحدهما التخلق بكل خلق سني والتجرد عن كل خلق دني، والآخر الفناء عن نفسه والبقاء لربه، وهما في التحقيق إلى معنى واحد... فيكون الأول عملا تكليفيا والثاني نتيجة ومجموعهما هو التصوف ".

وقال الجرجاني(ت: 816هـ):" الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل المتأدب بالحكمين كمال ".

وعرفه الإمام السيوطي بأنه:" تجريد القلب لله تعالى واحتقاره ما سواه".

وجماع الكلام وعصارة هذه التعاريف أن التصوف هو كل فعل أو أمر متسم بالخيرية أو بعبارة أخرى هو كل خلق كريم، وقد أجاد الإمام ابن القيم حين لخص القول في

قوله:"... واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق، وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد: هو بذل المعروف وكف الأذى ".

فالتصوف:" فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس الإنسانية أخلاقيا وتتحقق بواسطة رياضات علمية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، وللعرفان بها ذوقا لا عقلا، وثمرتها السعادة الروحية ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع وذاتية ".

ثانيا: اشتقاق مصطلح التصوف: بعد أن أبرزنا تعريف التصوف لدى أئمة الأحوال واستقر الأمر على أنه لقبهم، نجد بعض الباحثين يبحثون اشتقاقهذا المصطلح مذاهب شتى سنأتي على ذكر بعض منها:

فقيل أن **التصوف من الصُّفَّة:** نسبة إلى جماعة من الصحابة أقاموا بمسجد النبي ﷺ واعتزلوا الدنيا اضطرارا، منهم: بلال بن رباح، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، ابو موسى الأشعري، فأصبحت العزلة والزهد لقبا خاصا بهم.

ويرى البعض أن**التصوف من الصفاء:** يرى القشيري(ت: 465هـ/1017م) أنه من الصفاء الذي يطبع النفس.

وذهب البعض إلى أن **التصوف من الحكمة:** هناك من وجد لها اشتقاق في اليونانية وعي الحكمة" نيو صوفيا ".

ونسب ابن تيمية مصطلح التصوف بقبيلة **بني صوفة** وهي عربية جاهلية خدمت الكعبة، إذ قال:" وهذا وإن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك،... وإن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام".

ثالثا: عوامل ظهور التصوف.

تعددتآراء الباحثين حول نشأة التصوف ومصدره؛غير أن أننا يمكن أن نحصرها في اتجاهين رئيسيين هما:

فطائفة رأت أن التصوف لا صلة له بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد، بل هو نتاج تأثيرات دينية وعرقية لأقوام وحضارات دخلت الإسلام وتأثر بها الناس، وامتزجت والتحمت بالإسلام فأنتجت مزيجا من التصورات شرقية وغربية.

وطائفة أخربمن الباحثين رأت أن التصوف ما هو إلا الزهد الذي عرف به الرسول ﷺ ودعا إليه؛ وكثير من صحابته والتابعين؛ولتأثير الآيات القرآنية والأحاديث على النفوس.

من خلال ما سبقت الإشارة إليه، يعني أن هناك عوامل داخلية وأخرى خارجية ساهمت في التأسيس لهذا العلم.

1-عوامل داخلية:

كثيرة هي النصوص القرآنية والأحاديث النبوية حملت معاني الزهد ودعت إليه وحببت الناس فيه فاتخذوه سبيلا، كما كان كثير من الصحابة ممتثلين للزهد فكانوا بحق آباء مؤسسين للتصوف قال إبراهيم مدكور:" التصوف ظاهرة إسلامية نبتت في جو الإسلام وبيئة وتأثرت أساسا بفعل النبي ﷺ وأصحابه واعتمد على ما جاء به في الكتاب والسنة ".

وعليه كان التصوف في أساسه زهدا وورعا ثم نما وتطور وأصبحت له نظم وقواعد، واستقر كما قال عمر فروخ:" اتجاها نفسيا وعقليا بعيدا عن مجراها الأول،...".

قالالحارث المحاسبي(ت: 243هـ):" إني تدبرت أحوالنا في عصرنا هذا، فأطلت فيه التفكير، فرأيت زمانا مستعصيا، قد تبدلت فيه شرائع الإيمان... وتغيرت فيه معالم الدين، ... وذهب الحق، وباد أهله، وعلا الباطل، وكثر اتباعه، ورأيت فتنا متراكمة يحار فيها اللبيب، ورأيت هوى غالبا، وعدوا مستكلبا،... فالضمائر والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السلف وضمائرهم ". فضلا عن تباهي علماء زمانه بعلمهم:" وهو مع ذلك لا يألو في حسن

النطق وإتقان الكلم جهدا، ويزعم بذلك حكمة تجري على لسانه ... وعساه هناك إمرة وأمارة، يكرم من صوب فعله، ويبر من حمد أمره ... ".

2- عوامل الخارجية:

رغم تعددها أجملها الباحثون في:

أ- **المؤثرات الهندية:** كان لحياة التقشف والزهد ومجاهدة النفس التي مارسها الهنود،واحتقارهم للذات الجسدية المبني على قهر الجسد وتعذيبهتأثير على التصوف، ووصف الجاحظ(ت: 255هـ) لهم كان وصفا دقيقا:" إن هؤلاء سياح والسياحة بالنسبة لهم في حكم التوقف والاعتزال .. في الصوامع والأديرة؛ وتلك الجماعة يسافرون دائما اثنين اثنين ويسيحون بحيث إذا رأى الإنسان واحدا منهم يتيقن أن الثاني ليس ببعيد عنه؛... ولهؤلاء السياح خصال أربع القدس والطهارة والصدق والمسكنة ". وهذه الأوصاف التي وصف الجاحظ بها هؤلاء نجدها عيانا لدى بعض الصوفية.

وهذه فرقة من الهنود- على حد وصف الشهرستاني-:" اكتفوا بالقليل من الغذاء على قدر ما تثبت به أبدانهم ومنهم من كان لا يرى ذلك القليل أيضا ليكون لحاقه بالعالم الأعلى أسرع ".

ب- **المؤثرات الفارسية:** تتجلىهذه المؤثرات في بعض مصطلحات التصوف الإسلامي حيث قال السهروردي:" وكان الفرس أمة يهدون بالحق وبه كانوا يعدلون حكماء فضلاء غير مشبهة المجوس قد أحببنا حكمتهم النورية الشريفة التي يشهد بها ذوق أفلاطون ومن قبله في الكتاب المسمى حكمة الإشراق ". إذ يعد الإشراق والكشف والتجرد وغيرها مصطلحات لهادلالتهاعند الصوفية. ومن هنا كان الفرس كغيرهم من الأمم لما امتزجوا الإسلام جاؤوا ومعهم تراثهم وحضارتهم وثقافتهم العريقة.

ج- **المؤثرات المسيحية:** حظي الرهبان لدى العرب الجاهليين باحترام كبير؛ إذ الرهبنة النصرانية اتخذت من البعد عن ترف الحياة، والانزوائهم في الأديرة والرضا بقليل الملبس والمأكل سمة خاصة بهم. وهذا الأمر اتخذه بعض المستشرقين طريقا لإثبات تأثير النصرانية والرهبان في التصوف والمتصوفة، فهذافون كريمر يذهب إلى أن التصوف الإسلامي من تأثيرات العرب الجاهليين الذين كانوا نصارى، بل كثير منهمكانوا قسيسين ورهبانا؛في حين يقرر جولد تسيهر أن النصرانية تفضل الفقر والفقراء على الغنى والأغنياء، فزعم أن ما ورد في الحديث النبوي من هذا المعنى مستمد من النصرانية؛ وهذا نيكسون المستشرق البريطاني يرى أن ما يصطنعه الصوفية من صمت وذكر مأخوذ من النصرانية أيضا بزعمه.

رابعا: نشأة التصوف.

إذا كان ابن خلدون قرر أن التصوف من العلوم الحادثة في الإسلام، فلا شك أنه قد مر بمراحل التي في ضوئها نشأ ونما وتطور واستقام علما وسلوكا. فالقشيري يرى أنه على عهد رسول الله ﷺ لم يتفاضل الناس بينهم بشيء إلا بصحبة رسول الله ﷺ فقيل لهم الصحابة، لأن الصحبة كانت ميزان التفاضل، وكان الصلاح ينسب للصالحين بقولهم مسلم ومؤمن، ثمأطلق عليهم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام بعدهم بالزهد والتعبد تعلقوا به وتخصصوا،واتخذوا طريقة لذلك وأخلاقا بها ارتقت إلى التصوف.

وهذا الإمام ابن الجوزي يبين مراحل نشأة التصوف بقوله:" كانت النسبة في زمن الرسول ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا للعبادة، واتخذوا من ذلك طريقة تفردوا بها ... ". ثم قال:" وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهر أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ".

وصورابن خلدون الزهد الذي كان عاما في الصحابة والسلف وما طرأ عليه من تغير وتحول بقوله:" فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده جنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ". وتتبع ابن تيمية هذا التحول:" في أواخر عصر التابعين حدث ثلاثة أشياء: الرأي والكلام والتصوف فكان جمهور الرأي في الكوفة وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة، فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين ظهر عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، وظهر أحمد بن علي الهجيمي وبنى دويرة للصوفية وهي أول ما بني في الإسلام وصار لهم من التعبد المحدث طريق يتمسكون به، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع وصار لهم حال من السماع والصوت وكان أهل المدينة أقرب من هؤلاء في القول والعمل، وأما الشاميون فكان غالبهم مجاهدين ".

وما أن دُونت العلوم وانتشرت واستقر التخصص لدى العلماء، فألف الفقهاء في فنهم والأصوليون والمتكلمون والمفسرون والمحدثون واللغويون، كل حسب تخصصه؛ والأمر ذاته لدى الصوفية فألفوا في الورع والمحاسبة كالحكيم الترمذي والمحاسبي والجنيد والقشيري باعتبار أن لكل فن مصطلحاته تكفل علماؤه بيانها وبيان مقاصد أهلها والسالكين لها.

وقال الجنيد(سيد الطائفة):" ما أخذنا التصوف عن القيل والقال بل عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف ".وهذا نهج الآباء يقرره أبو نصر السراج في آداب الصوفية:" إيثار الذل على العز واستحباب الشدة على الرخاء "، ويطلب أبو طالب المكي من المريد ألا يزيد على رغيفين في اليوم والليلة.وكل هؤلاء علماء أعلام.

خامسا: مصطلحات التصوف.

كثيرة هي مصطلحات المتصوفة التي حوتها مؤلفاتهم؛ إذ أن مفاتيح العلوم والفنون إنما هي مصطلحاتها، والتصوف فنّ حادث في الملّة كما قرر ذلك ابن خلدون؛ وحصر

مصطلحات هذا الفن من الصعوبة بمكان؛ وهذه بعض منها: الفناء والبقاء والتدبير والتدبر والتجلّي. وهي أمثلة تنبئ عن كثير من المصطلحات.

الفناء: قال الجرجاني:" الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة والفناء، فناءان: أحدهما ما ذكر، وهو بكثرة الرياضة، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق، ... ".

وقال الكلابادي:" فالفناء هُوَ أَن يفنى عَنهُ الحظوظ فَلَا يكون لَهُ فِي شَيْء من ذَلِك حَظّ وَيسْقط عَنهُ التَّمْيِيز فنَاء عَن الاشياء كلهَا شغلا بما فنى بِهِ ".

البقاء: قال الكلابادي:"قَالَ بعض الْكِبَار الْبَقَاء مقَام النَّبِيين ألبسوا السكينَة لَا يمنعهُم مَا حل بهم عَن فَرْضه وَلَا عَن فَضله:﴿بيبيتر□□تنتى﴾ وَالْبَاقِي هُوَ أَن تصير الأشياء كلهَا لَهُ شَيْئا وَاحِدًا فَتكون كل حركاته فِي موافقات الْحق دون مخالفاته فَيكون فانيا عَن المخالفات بَاقِيا فِي الموافقات ".

التدبير والتدبر: قال الجرجاني"... التدبير: النظر في العواقب بمعرفة الخير، وقيل: التدبير: إجراء الأمور على علم العواقب، وهي لله تعالى حقيقةً، وللعبد مجازًا.

التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر؛ إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب ".

التجلّي: قال الجرجاني:" ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جمع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي، فإن لكل اسم إلهي بحسب حيطته ووجوهه تجليات متنوعة، وأمهات الغيوب، التي تظهر التجليات من بطائنها... ".